الصراع البحري العماني – البرتغالي في الخليج وغرب المحيط الهندي في النصف الثاني من القرن السابع عشر

أ.د. صالح محمد العابد

قسم التأريخ

أدت حرب تحرير موانئ عمان التي استغرقت قرابة عقدين من الزمن ، وتكللت بطرد البرتغاليين من قاعدة ارتكازهم مسقط بعد معركة بطولية ألهب الانتصار فيها حماسة العمانيين ، الى خلق حالة من الاندفاع والثقة في النفس لم تتمثل في التصدي للبرتغاليين بحرا فحسب ، ولكن في تبني سياسة هجومية على معاقلهم في الهند وسواحل وجزر شرق افريقيا ، كان من نتيجتها ترنح البرتغاليين (سادة البحار الشرقية طوال أكثر من قرن من الزمن) وأنهيارهم وفقدانهم لقواعدهم الواحدة تلو الأخرى ، وبروز عمان اقوى دولة بحرية غرب المحيط الهندي .

كانت نقطة الأنطلاق في هذا التطور الملحمي ادراك الامام سلطان بن سيف (١٦٤٩-١٦٧٩) ان معركة مسقط ستكون فاتحة لصراع مصيري مع العدو ، وأن أمتلاك قوة بحرية قوية أمر حاسم لتأمين سواحل بلاده وتجارتها من الهجمات التدميرية البرتغالية . ولهذا ركز أهتمامه على بناء القوة البحرية . وخلال وقت قياسي أستطاع تشكيل نواة الأسطول الذي قدر له ان يؤدي دورا خطيرا في السنوات التي أعقبت حرب التحرير .

ويرى المتتبع لتأريخ الصراع البحري العماني – البرتغالي : أن بناء الأسطول تزامن منذ البداية مع استمرار الأصطدامات البحرية مع قطع الاسطول البرتغالي القوي ، وما كان يتأتى للعمانيين أن يقفوا وقفة التحدي هذه بأسطولهم الوليد لولا عراقتهم وتمرسهم بالفنون البحرية ، فاثبتوا عمليا أنهم نسل واحد من أعرق الشعوب البحرية . ومن هذه الحقيقة ، جاءت مبادرة العمانيين بتطوير بناء

سفنهم ، وتبني طراز جديد من السفن الحربية يكون بمقدورها مواجهة (القلاع الطافية) للعدو .

وأفادت السفينتان البرتغاليتان اللتان تم الأستيلاء عليهما خلال معركة مسقط وسائل بناء سفن جديدة تثبت الواح ابدانها بالمسامير بدلا من الأسلوب التقليدي بخياطتها بالحبال ، ولها فتحات للمدافع ، وترتفع على سطحها الصواري ذات الأشرعة المربعة ، الى جانب تحوير السفن المحلية بما يلائم الغرض الجديد[١] .

وفي خلال سبعة عقود من حكم اليعاربة[٢] ، أصبحت عمان تفاخر بأسطول مهيب . وصف الكابتن تشارلس لوكير Lockyer الذي زار مسقط في ١٧٠٦ المدينة وأسطولها بقوله : "تطور هذا الميناء كثيرا على أيدي العرب الذين انتزعوه من قبضة البرتغاليين بحيث أصبح مصدر قلق لكل المتاجرين مع الهند ... لديهم أربع عشرة سفينة حربية ضخمة وعشرون سفينة تجارية ، واحدى سفنهم الحربية تحمل سبعين مدفعا ، وليس في أسطولهم سفينة تحمل أقل من عشرين مدفعا ، ومع صعوبة الحصول على البارود فأن العرب اكثر الناس سخاء به في كل المناسبات ... راياتهم حمر تخفق بخيلاء على الصواري"[٣] .

أما الكابتن الكسندر هاملتون فقد ذكر بأن الأسطول العماني سنة ١٧١٥ يتألف من : "سفينة واحدة ذات ٧٤ مدفعا وسفينتين ذاتي ٦٠ مدفعا وواحدة ذات ٥٠ مدفعا ، وثماني عشرة سفينة أصغر حجما تحمل كل واحدة منها ما بين ١٢ الى ٣٢ مدفعا ، الى جانب سفن الترانكي – ذات المجاذيف – تحمل من ١٤ الى ٨ مدافع لكل منها ... وبهذه القوة البحرية جعلوا سواحل البحر في حالة رهبة"[٤] .

أما السالمي فقدر قوة الأسطول في الحقبة نفسها ما بين أربع وعشرين وثماني وعشرين سفينة حربية ، تحمل أكبرها (الملك) ثمانين مدفعا[٥] .

بدأت المنازلة بعد وقت قصير من طرد البرتغاليين من مسقط . فقد حاولوا أستعادتها أو إيجاد بديل عنها . فأرسل نائب الملك البرتغالي اسطولا من سبع سفن حربية ، دخلت خليج عمان ، ولكن قائده آثر للتوجه الى ميناء كونك[٦] على

الساحل المقابل ، وأجرى مفاوضات مع حـــاكم اقليـــم فـــارس بـــهدف الســـماح للبرتغاليين بأتخاذ أحد الموانئ الفارسية قاعدة لهم . وبتفويض من الشـــاه عبـــاس الثاني (١٦٤٢-١٦٦٦) ، أنسجاما مع سياسته في إيجاد الموازنـــة بيـــن القـــوى الأوربية ، تمت الموافقة على أستخدامهم جزيرة هنجام وميناء كونك لاقامة وكالـــة محصنة ومرابطة ست سفن فيه ومنحهم حق الحصـــول علـــى عـــائدات نصـــف كماركه[٧]. وبعد أختتام المفاوضات غادر القائد البرتغالي ميناء كونك ، وســـرعان ما وصل اسطول عماني بغتة وهاجم السفن البرتغالية ، وبعد معركة خاطفـــة تـــم أسر سفينتين منها[٨] .

هذه العملية المباغتة ، وأمتلاك العمانيين لسفن حربية أورثت نائب الملـــك هلعا وأصابته بقلق كبير ، يتضح ذلك من رسالته الى ملك البرتغال جوان الرابع ، في الاسبوع الأخير من شهر كانون الأول ١٦٥١ إذ كتب يقـــول : "لقـــد أصبـــح العرب مكتفين ذاتيا وواثقين من انفسهم بحيث يتطلب الأمر ارسال أسطول ضخـــم جدا لتحقيق غايتين : سحقهم وتأمين مياه المنطقة والحيلولة بينهم وبين الوصـــول الى ممباسا التي أصبح من اليسير عليهم الوصول اليها ، واخـــيرا عـــدم اتاحـــة الفرصة للحكام الآخرين في الجوار للسير على منوالهم"[٩] .

في الأول من آيار ١٦٥٢ تحرك أسطول برتغالي كبير يقـــوده أنطونيـــو سوسا كوتينهو Coutinho من كوا بهدف مهاجمة مسقط ، ولكنه ما أن أقترب من الميناء حتى أنحرف بأتجاه كونك لما أدركه من ضخامة الأستعدادات العمانية فـــي قلعتي مسقط ، ومن كونك قفل راجعا الى الهند ، وبالقرب من قشم التقى اســـطولا عمانيا مكونا من سفن محلية في ٢٤ أيلول ، فدارت معركة غير متكافئة خســـرها العرب[١٠] . وخلال الشتاء زاد تعزيز الاسطول البرتغالي في الخليج العربي حتـــى وصل عدد السفن المرابطة فيه حوالي ستين سفينة وهي قوة هائلة تمكنـــت مـــن محاصرة مسقط بحرا . وبحلول شباط من عام ١٦٥٣ بلـــغ الضغـــط البرتغـــالي مستوى غاية في الخطورة . ومع ذلك صمد العمـــانيون للتحـــدي ، وعنـــد هـــذه المرحلة الحرجة ، كان تفجر الحرب بين الهولنديين والبرتغاليين عاملا قويا فـــي

انهاء معاناة مسقط ، فقد أضطر البرتغاليون الى سحب جزء كبير من الأسطول من مياه الخليج لخوض الحرب مع أعدائهم في أجزاء أخرى من المحيط الهندي . ويعلق باثرست على ذلك بالقول : "كانت واحدة من المصادفات التي جعلت دولة أوربية تساعد على نحو غير مقصود عمان"[١١] . وكان من الطبيعي حدوث تعاون ونوع من التحالف بين العمانيين والهولنديين أستمر الى آب ١٦٥٦ ، ليتوقف بسبب الأنباء التي وردت الى الامام سلطان بأن الهولنديين يفكرون في معاونة الفرس بشن حملة على مسقط . لقد كان على البرتغاليين في خضم صراعهم المرير مع العمانيين مواجهة تحد هولندي شرس دام أكثر من نصف قرن[١٢] ، أنضمت اليه أنكلترا وفرنسا ، فكان مآل ذلك مدمرا على مكانة البرتغاليين في مياه المحيطين : الأطلسي والهندي[١٣] .

وبدأ العمانيون الهجوم مجدداً ولم يقتصر الميدان على غرب الهند ، بل امتد الى ساحل شرق أفريقيا ، حيث واجه البرتغاليون في مناطق تحكمهم في الساحل سلسلة من الأنهيارات ، فالوشائج القوية القديمة التجارية والدينية والقومية التي تربط سكان ذلك الساحل وجزره بعمان[١٤] ، جعلت من أمتداد الصراع الى هناك أمراً حتمياً .

فعلى أثر فشل انتفاضة ممباسا ضد البرتغاليين عام ١٦٣١ وفرار ملكها وكبار قادتها الى الساحل[١٥] ، تواصلت المقاومة في مواجهة سياسة القمع والتنكيل الوحشية ضد السكان في فازا وبمبا وسيو ، مما دفع ملوك تلك الأماكن الى الكتابة الى ملك البرتغال عام ١٦٤٥ يشكون من الظلم الذي يعانونه على يد القائد العام في ممباسا . وأستمرت حالة الحرب بين القبائل المجاورة لممباسا والبرتغاليين حتى عام ١٦٥١ ، فأرسل ملك البرتغال قائداً جديداً هو فرانسسكو كابريرا Cabreira الى شرق افريقيا بهدف استعادة السيطرة ومنع العمانيين من التدخل[١٦]. وشجعت انتصارات العمانيين ملوك زنجبار وبمبا وغيرهم من حكام شرق أفريقيا على طلب العون من الأمام سلطان بن سيف لأنقاذهم من محنتهم . وكانت استجابة الأمام سريعة ولاسيما ان انشغال جانب كبير من الاسطول

البرتغالي في عمليات الخليج العربي أوجد حالة من الضعف في القوة البحرية في شرق افريقيا وهي الضمانة الوحيدة لتمسك البرتغاليين بمواقعهم هناك . وقام أسطول عماني صغير بهجوم مباغت على زنجبار عام ١٦٥٢ أوقع خسائر كبيرة بالبرتغاليين ودمر مراكزهم ، فكان ذلك الهجوم الناجح منطلقاً لأندلاع ثورة عامة في مناطق الساحل الأخرى[١٧] . أثمرت الثورة سريعاً ، فالحرب مع العمانيين والهولنديين أنهكت القوة البرتغالية وبدأت بأستنزافها سريعاً ، مما بشر بمستقبل قاتم لوجودهم. وظهر ذلك بوضوح على مركزهم في شرق أفريقيا حيث تضافرت الثورة لتزيده ضعفاً وتدهوراً ، وليفقدوا مواقعهم جميعها ما عدا ممباسا[١٨] .

في سنة ١٦٦٠ وصل أسطول عماني الى الساحل فحرر فازا وهاجم ممباسا وأستولى على أحيائها وحاصر قلعتها ، وتواصلت هجماته ، تعاونه القبائل المحلية على طول الساحل جنوباً الى رأس دلكادو . وبحلول آب ١٦٦٢ كانت سفن الأمام تحكم سيطرتها على طول الساحل وتشدد الخناق على قلعة ممباسا ، وتوالت الاستغاثات من القائد البرتغالي العام في ممباسا الكابتن جوزيف بوتيلهودا سلفا de Silva الى نائب الملك في كوا طلبا للنجدات ، ولكن وضع البرتغاليين لم يسمح بتلبيتها خشية تعرض قاعدة حكمه لهجوم متوقع . وأثمر الحصار ، ففي سنة ١٦٦٥ سقط الحصن واستسلم رجال الحامية ، حيث قام الأمام سلطان بتعيين محمد بن مبارك واليا عليه[١٩] .

سياسة الأندفاع المكللة بانتصارات متتالية ، ولدت الرهبة من قوة الأسطول العماني آنذاك "بحيث لم يجرؤ أحد في المياه الهندية على التعرض له"[٢٠] . ففي أثناء حصار ممباسا في ١٦٦١ و ١٦٦٢ عبر أسطول عماني من سفن صغيرة الى جزيرة بومباي وأنزل رجاله ، دون أن يجرؤ المدافعون البرتغاليون على أعتراضهم ، وقام المهاجمون بتدمير القلعة البرتغالية[٢١] . ولمعالجة التدهور المعنوي للبرتغاليين ، عين نائب ملك جديد هو جواونونس داكونها الذي وصل الى كوا في أيلول ١٦٦٦ . باشر النائب الجديد بأعداد حملة بحرية كبرى لمهاجمة مسقط تألفت من ثماني سفن ضخمة وما بين ٤٠ الى ٦٠ فرقاطة . أنطلقت الحملة

عام ١٦٦٧ الى بومباي لتأمين دفاعاتها ، ومنها حاولت دخول خليج عمان ، ولكن الغريب في الأمر ، أن سفينة واحدة فقط وصلت الى قرب كونك ، في حين أنسحبت بقية سفن الأسطول دون أن تحقق أي شيء . ولعل تعليل هذا الموقف يكمن في تدهور الروح المعنوية للبرتغاليين وخشيتهم من العمانيين ورغبتهم في تحاشي الاصطدام ، الى جانب أنعدام الأنضباط بين البحارة[٢٢] ، مقارنة بأن خصومهم أستطاعوا خلال أقل من ست عشر عاماً ، بعد تحرير مسقط ، أتقان أبحار السفن الحربية الضخمة وتوجيهها وفنون الحرب البحرية من مناورات وهجوم ودفاع وأطلاق نار[٢٣] .

في عام ١٦٦٨ بدا وكأن الأسطولين البرتغالي والعماني يلتحمان في معركة حاسمة . فقد أستولى الأميرال البرتغالي جوزيف دي كاسترو على بعض السفن العمانية التجارية محملة بالرز والخيول في شهر مايس . وبعد أن ألتحق بالاسطول الرئيس المؤلف من ثماني سفن أبحر لمهاجمة مسقط ، ولكنه بدر الوقت لديه بالقرب من رأس جاسك في عمليات قرصنية طالت السفن التجارية العمانية وأسر بعضها وتوجه الى كونك . وعلى الرغم من مرابطة الأسطول الحربي البرتغالي الضخم في الخليج ، أسرع الامام سلطان بأعداد أسطول من ١٩ سفينة و٥ فرقاطات ، يحمل ١٦٠٠ رجل ، وأبحر متجها الى الهند حيث قام بهجوم كاسح على ديو – ثاني أهم القواعد البرتغالية بعد كوا – وأستولى عليها دون خسائر تذكر . وظل فيها ثلاثة أيام قبل أن ينسحب محملاً بغنائم كبيرة جداً[٢٤].

لدى وصول نبأ الغارة الى كوا تحرك أسطول من ثماني سفن حربية لتعقب الأسطول العماني ، ولكن يبدو ان قائده تجنب ملاقاته ، وهذا يفسر توجهه الى كونك حيث انتهز الفرصة ليحصل من حاكم فارس على ٣,٠٠٠ تومان من أصل ٥,٠٠٠ حصة البرتغاليين من ذلك الميناء[٢٥] . ويعلق باثرست على ذلك بأن : "نفوذ الامام بلغ درجة عالية من الهيبة في مياه الخليج واصبح العمانيون سادة الملاحة والتجارة فيه"[٢٦] .

بعد النجاح الكبير الذي حققته غارة ديو ، وجه الأمام ضربة جديدة الى البرتغاليين ، ففي عام ١٦٦٩ ابحر اسطول قوى الى موزمبيق – قاعدة أرتكاز البرتغاليين في شرق أفريقيا – فأستولى على المدينة وفرض حصاراً على حصنها، وأنسحب بعد ذلك خشية من أنقطاع خطوط امداداته(٢٧) .

دفع القلق الذي ساور نائب الملك على مصالح بلاده في الخليج ، الى أرسال أسطول جديد في صيف ١٦٦٩ مؤلف من اربع سفن حربية ضخمة وست فرقاطات بقيادة جيرونيمو مانويل . عبر الأسطول البرتغالي بندر عباس في نهاية حزيران وفي نهاية آب وأوائل أيلول التقى أسطولاً عمانياً مؤلفا من ست سفن و ١٩ فرقاطة ، كان في مهمة دورية ، في الممر المائي المؤدى الى كونك ، وعلى الاثر نشبت معركة بحرية ضارية بين الطرفين ، ورد وصفها في تقرير الوكيل الانكليزي في بندر عباس : "كان ألتحاماً دموياً مريعاً ... قتل فيه ٥٠٠ من العرب وخسر البرتغاليون معظم مقاتليهم البيض ... وأقتحم البحارة العرب سفينة القيادة البرتغالية ... ثم انسحب العرب أستعداداً لألتحام جديد ، بينما تراجع الأميرال البرتغالي بأسطوله الى كوا للحصول على مزيد من السفن بهدف مهاجمة مسقط"(٢٨).

عاد الأسطول في السنة التالية بقوة أكبر ، إذ تألف من ٧٥ سفينة ، وحاول الأقتراب من مسقط ، ولكنه – كما تذكر تقارير الوكالة الأنكليزية في بندر عباس – لم يستطع أن يحقق أي نجاح "بالرغم من وصول تعزيزات اليه : سفينتين و ١٢ فرقاطة في شهر تشرين الأول ... ان البرتغاليين يحدثون ضجة كبيرة ولكنها لا تؤثر في أعدائهم العرب والهولنديين"(٢٩) . وعلى أية حال ، لم يحدث أشتباك كبير بين الاسطولين ، وأكتفى البرتغاليون بعمليات تعرض قرصنية للسفن التجارية العمانية . وكان أكبر نجاح حققوه في شتاء ذلك العام (١٦٧٠) أسرهم لقافلة سفن تجارية عمانية كبيرة قادمة من البصرة .

لقد أصاب الأنهاك الطرفين فساعد ذلك على توصلهما الى تسوية مؤقتة . فشعور الأميرال البرتغالي دي ميلو بالحرج نتيجة تدهور حالة بحارته المعنوية

وعجزه عن تحقيق نتيجة حاسمة ، دفعه الى اتخاذ مبادرة شخصية تتعارض مع تعليمات نائب الملك . وفي ٢٤ أيلول ١٦٧٠ توجه الى صحار للتفاوض مع الامام سلطان . وأسفر اللقاء عن عقد هدنة تعهد فيها الطرفان بعدم التعرض للآخر مدة ستة أشهر(٣٠).

ولم يقدر للهدنة الاستمرار لقيام البرتغاليين بخرقها قبل أن توضع موضع التنفيذ . فلدى عودة دي ميلو القي القبض عليه بأمر نائب الملك وأرسل سجينا الى لشبونة بتهمة عدم ألتزامه بالأوامر الصادرة اليه ، مع أنه أكد لرؤسائه عدم قدرة البرتغال بأمكاناتها المتاحة مواصلة تحدي العمانيين في البحر(٣١) .

أن قبول الامام بالهدنة الذي كان دافعه ما عانته تجارة بلاده من أضرار بسبب الهجمات القرصنية ، ولد أنطباعاً غير صحيح لدى نائب الملك بتصوره أنها علامة ضعف . لذا أمر بعودة الأسطول الى الخليج فوراً وتشديد الحصار على مسقط .

لم تقع عمليات حربية كبيرة خلال عام ١٦٧٣ بالرغم من وصول أمداد جديد للأسطول البرتغالي في الخليج لتحقيق هدف محدد : مهاجمة مسقط . ولكن قائد الاسطول لم يجد في نفسه الجرأة على الاقتراب من قلعتها ، فحاول التعويض عن ذلك بقيامه في نهاية العام بغارة تخريبية على المناطق المجاورة لمسقط(٣٢) . وجاء الرد الأنتقامي سريعاً ، ففي بداية شباط ١٦٧٤ ، بتنسيق مع الهولنديين ، أرسل الامام اسطولاً من عشر سفن لمهاجمة باسين . ونجح الأسطول في أنزال ٥٠٠ رجل استطاعوا الحاق الهزيمة بقوة الدفاع البرتغالية وحملوا معهم غنائم كبيرة . ولا أدل على الأنهيار المعنوي للبرتغاليين من أنهم طوال خمسة أيام أمضاها المهاجمون في المدينة ، قبل أن يبحروا عائدين ، لم يجرؤوا على مهاجمتهم . وقد أدت الغارة الى دفع عدد كبير من سكان باسين الى تركها لاجئين الى بومباي(٣٣) . وفي حملة ثانية على المراكز البرتغالية في الهند ، ألتقى أسطول عماني أسطولاً تجارياً برتغالياً كبيراً بالقرب من ديو في كانون الثاني ١٦٧٦ وأسفر القتال عن تدمير واسر عدة سفن برتغالية(٣٤) .

ومرت سنتان دون وقوع أشتباك كبير بين الطرفين . وفي بداية آذار ١٦٧٨ أبحر أسطول برتغالي من ١٥ سفينة حربية كبيرة وعدة سفن أصغر الى الخليج هدفه أشغال العمانيين ، جزءاً من الأستعدادات لحملة برتغالية كبيرة على شرق افريقيا ، تقرر أن يكون موعدها نهاية السنة[٣٥] .

تلقى دوم بيدرودي الميدا تعليماته من ملك البرتغال افونسو السادس (١٦٥٦-١٦٨٣) ، لدى تعيينه بمنصب نائب الملك ، بأن يركز جل أهتمامه على شرق أفريقيا خوفاً من انفصام الصلة بينها وبين الممتلكات البرتغالية في الهند ، مما سيؤدي الى وقوعها بأيدي العمانيين[٣٦] . وبناء على ذلك ، أبحر نائب الملك بنفسه على رأس حملة كبيرة متوجها الى ذلك الساحل . وبعد أن تم تعزيز قوة حاميتي موزمبيق ومباسا ، توجهت الحملة الى فازا Faza فوصلت اليها في ١٢ آب . وبسبب المقاومة المستميتة ، لم يتمكن نائب الملك من أحتلال المدينة الا في ١٦ كانون الاول ، حينما تلقت الحملة تعزيزات جديدة من كوا . وتحركت الحملة بعد ذلك فأستولت على سيو Siyu ولامو وماندا ، بعد معارك طاحنة . وقبل أن يتمكن نائب الملك من مواصلة تنفيذ مهمته في أحتلال بقية المواقع ، وصل أسطول عمان الحربي في الاسبوع الثاني من كانون الثاني ١٦٧٩ قرب ماندا ، وعلى الفور اندفع مهاجماً وأنزل رجاله في الميناء حيث ألتحق به السكان . وبهجوم مشترك دار صراع دام بضعة أيام أسفر عن فرار البرتغاليين من ماندا . وبعد قتال متواصل ستة أيام تالية ، أجبرت قوة الأسطول البرتغالي الكبير على الفرار الى موزمبيق ، حيث توفي نائب الملك دي الميدا كمدا بعد أقل من شهر[٣٧].

في ١٩ كانون الاول ١٦٧٩ (١٦ ذي القعدة ١٠٩٠هـ) توفي الامام سلطان بن سيف[٣٨] بعد أن نجح في تحويل عمان الى أقوى قوة بحرية يخشى جانبها في غرب المحيط الهندي . وأدت ضرباته القوية للقوة البرتغالية الى ترنحها وتهاويها. ففي خلال ثلاثة عقود من الزمن ، أعقبت تحرير مسقط ، واصل جهاده ومناوئته للعدو من دون هوادة في الهند وشرق افريقيا ، جرت خلالها سلسلة من المعارك

البحرية كانت سجالاً بين الطرفين . وواصل العمانيون ، في أثنائها ، تعزيز أسطولهم وتطوير كفاءته بينما فشل البرتغاليون في كل محاولاتهم إيجاد موطئ قدم لهم على ساحل عمان ، وفقدوا قواعدهم في شرق أفريقيا الواحدة تلو الأخرى ، واخرها مباسا التي حررها العمانيون في ١٦٦٥ بعد حصار دام خمس سنوات ، ولم تسلم مستعمرتهم المنيعة في الجنوب : موزمبيق ، من التعرض لهجوم عماني مدمر سنة ١٦٦٩ ، وتوالت على مراكزهم في الساحل الغربي للهند غارات جريئة كلفتهم باهضاً : بومباي في ١٦٦١ و ١٦٦٢ ، ديو في تشرين الثاني ١٦٦٨ وكانون الثاني ١٦٧٦ ، باسين في شباط ١٦٧٤ ، أضافة الى كونك على الساحل الشرقي للخليج في ١٦٧٠ . وحينما حاول البرتغاليون اعادة سيطرتهم على شرق افريقيا في نهاية ١٦٧٨ بحملة كبرى قادها نائب الملك بنفسه ، خسروا كل ما حققوه في بدايتها ، بوصول الاسطول الحربي العماني الذي أجبرهم على الفرار للنجاة بحياتهم . لقد رحل أحد الرجال العظام بعد أن حفر أسمه في الزمن قائداً وانساناً . وصف الأزكوى عهده وشخصيته بكلمات معبرة : "... أعتمرت عمان في دولته وزهت وأستراحت الرعية في عصره وشكرت ورخصت الأسعار وصلحت الأثمار ، وكان متواضعاً لرعيته ولم يكن محتجباً عنهم وكان يخرج في الطريق بغير عسكر ويجلس مع الناس ويحدثهم ويسلم على الكبير والصغير والحر والعبد ولم يزل قائماً مستمراً حتى مات رحمه الله وغفر له"[٣٩] .

أنتخب بلعرب اماما في يوم وفاة والده ، فواصل سياسة التصدي للبرتغاليين بنشاط مماثل . وكان البرتغاليون آنذاك يحتفظون بحصن مباسا[٤٠] وتزاودهم الآمال بأستعادة ما فقدوه من موانئ ساحل شرق أفريقيا ، ولاسيما باتا وتوابعها سيو وفازا . وفي أوائل ١٦٨٦ ، أرسلو فرقاطتين من كوا للمشاركة في الهجوم على سيو ، ولكن المهاجمين أحجموا عن تنفيذ المهمة حينما شاهدوا سفنا عمانية راسية في ميناء باتا . وبعد أربعة أسابيع ، في نيسان ، جرت محاولة فاشلة دفعت بالبرتغاليين الى الأنسحاب الى كوا ناكصين على أعقابهم . وما أن علم قائد حصن مباسا جوا وانطونيو برتغال بمغادرة السفن العمانية باتا ، التي صارت بذلك هدفاً سهلاً ، حتى هاجمها وأستولى عليها في ٣ آب[٤١] .

أدرك نائب الملك الجديد دوم رودريغوداكوستا أهميـــة الاحتفـــاظ بباتـــا ، فأرسل أسطولا لتعزيز قوة الأحتلال . وفي كانون الأول ١٦٨٧ ، بعد أيام قليلـــة من وصوله ، ظهر أسطول عماني من خمس سفن ، قدم من مسقط استجابة لطلب النجدة من أهالي باتا . رسا الأسطول العماني وتم أنزال ٣٠٠-٤٠٠ مقاتل الـــى البر "ولأسباب لا يعرفها الا البرتغاليون أنفسهم لم يبدوا أية مقاومة وتراجعوا دون أن يوجهوا الى خصومهم ضربة واحدة"[٤٢] . ولم يكن امام قائدهم جواوانطونيـــو سوى الأنسحاب بأسطوله الى ممباسا .

أن أستمرار العمليات القرصنية البرتغالية في الخليج وما عانتـــه التجـــارة العمانية بسببها ، وشعور البرتغاليين بـــالعجز أزاء الأســـطول العمـــاني ، دفـــع بالطرفين الى فتح باب المفاوضات عام ١٦٨٨ . مثّل الامام بلعرب بن سلطان في المفاوضات عبد الشيخ ، أما نائب الملك البرتغالي فمثله غونزاليس سيموز مديـــر الشؤون البرتغالية في كونك . وأعتمدت مسودة الأتفاق على شروط الهدنة التـــي سبق ووقعها دي ميلو عام ١٦٧٢ ورفضها نائب الملك آنـــذاك . ونصـــت علـــى أرسال الأمام لمبعوث منه الى كوا لتوقيع معاهدة سلام[٤٣] . وعلى أية حـــال لـــم يسفر ذلك الأتفاق عن شيء عملي فكل ما كان يريده الجانبان كســـب الوقـــت لأن الصراع بينهما مصيري . إذ لم يمض سوى وقت قصير حتـــى بـــاغت أســـطول برتغالي بقوده الكابتن دييغودى ميلو سفناً تجارية عمانيـــة فـــي ميـــاه ســـورات ودمرها[٤٤]. وبعد ثلاث سنوات ، في شباط ١٦٩١ خسر العمانيون معركة بحريـــة أخرى في المياه الهندية بالقرب من سورات[٤٥] .

ومما لاشك فيه أن ظاهرة الأنكماش المؤقت في النشاط الحربي العمـــاني آنذاك يعود الى الأنقسامات الداخلية والصراع الأسرى التـــي شـــهدتها المرحلـــة الأخيرة من حكم بلعرب . ويشير الازكوي الى هذه الحالة : "ثـــم وقعـــت بينـــه [بلعرب] وبين أخيه سيف فتن أصيب بسببها كثير من أهل عمان ومـــن فقهائـــهم ومشايخهم ... بعقوبات كبيرة ... وخرج سيف على أخيه وأخذ كافة حصون عمان

ولم يبق الا حصن يبرين فسار اليه وحاصره فوقعت بينهم الحرب حتى مات بلعرب في الحصار ..."[٤٦] .

شهدت سنوات حكم الامام سيف بن سلطان ١٦٩٢-١٧١١ عهداً زاهراً استطاع ان يحسم الصراع مع البرتغاليين في الخليج وشرق أفريقيا . فما أن استقر الوضع الداخلي حتى أستأنف بنشاط مذهل عملياته ضد البرتغاليين وكانت فاتحتها قيام أسطول عماني عام ١٦٩٤ بمهاجمة جزيرة سالست حيث تم تدمير المنشآت البرتغالية وأسر حوالي ١٤٠٠ برتغالي[٤٧] . أتبع الامام ذلك بهجوم ناجح آخر دمر قاعدتي باسلور ومانكالور . وتواصلت الهجمات فأكتسح أسطول عماني عام ١٦٩٥ ساحل كنارا وعاد محملاً بغنائم كبيرة[٤٨] .

وفي كانون الثاني ١٦٩٥ هاجم اسطول عماني من خمس سفن يحمل ١٥٠٠ رجل ميناء كونك – مركز البرتغاليين على الساحل الشرقي – فدمروا القاعدة تماما وأسروا سفينة كبيرة وغنموا ما قيمته ٦٠,٠٠٠ تومان (تعادل ١٩٨,٠٠٠ باون) [٤٩] .

خطط الامام سيف لهجوم عام على ممباسا مستندا الى الأنتصارات التي تحققت في الهند والخليج ، وأستجابة لنداء الأستغاثة من ملك لامو وامراء ساحل شرق أفريقيا ، وثأرا لأعدام اسرى عمانيين في كوا[٥٠] .

أطبقت طلائع قوة الامام ، مؤلفة من سفينتين حربيتين كبيرتين وخمس سفن صغيرة وأحدى عشر سفينة (داو) على مقتربات ممباسا في ١٣ نيسان ١٦٩٦ وحاصرت قلعتها ، لتبدأ واحدة من أبرز الملاحم في تأريخ الصراع بين العمانيين والبرتغاليين ، تواصلت خلالها محاولات البرتغاليين اليائسة لفك الحصار دون جدوى بسبب تعزيز الامام لقوة الحصار بأستمرار ، وأختتمت الملحمة بأستسلام الحامية وسقوط أقوى معاقل البرتغاليين في شرق أفريقيا في ١٤ كانون الأول ١٦٩٨ . حيث عين ناصر بن عبد الله المزروعي واليا عليها[٥١] . وأستثمر العمانيون أنتصارهم الكبير لكنس الحاميات البرتغالية على طول الساحل فتم تحرير المواقع شمال رأس دلكادو كافة .

وجد البرتغاليون أنفسهم خلال ملحمة ممباسا وسلسلة أنتكاساتهم في الهند والخليج أنهم أضعف من مواجهة العمانيين دون الحصول على دعم خارجي . وكان الأمل يراودهم بتوجيه ضربة قوية ومباشرة الى مسقط . ولهذا قام نائب الملك في تشرين الأول ١٦٩٦ بأرسال دوم جريجوريوبريرا مندبا لكو مبعوثاً خاصاً الى أصفهان طالبا من الشاه أعلان الحرب على عمان والقيام بحملة مشتركة لتدمير مسقط[٥٢] . وكانت هذه الخطوة فاتحة سلسلة من العروض المشابهة لم يسفر عنها شيء بالرغم من أن ذلك الهدف تدمير مسقط – كان في صلب رغبة الشاه الصفوي . الا أن أوضاع البلاد في عهد الشاه سلطان حسين (١٦٩٤-١٧٢٢) كانت تومئ الى قرب أنهيار بنيان الدولة الصفوية التي تداعت أمام عاصفة الغزو الأفغاني[٥٣] .

من الناحية العسكرية لم يكن في مقدور البرتغاليين دحر العمانيين الا في حالات استثنائية كالمعركة التي دارت بالقرب من رأس الحد في ١٣ نيسان ١٦٩٨ وأنتهت بخسارة قاسية للجانب العماني "أستشهد فيها مئتا رجل بضمنهم والي مطرح"[٥٤] . ويعلق باثرست : "أثبتت الاشتباكات البحرية المتفرقة المتتالية أفتقار البرتغاليين الى الحيوية والشجاعة ... وبصورة عامة كان السلاح البحري العماني قد حقق تفوقاً واضحاً طوال نصف قرن من الصراع ... وتحول اسطول عمان في أوقات مختلفة الى أقوى وأرهب أسطول في البحار الهندية"[٥٥] .

تضافرت جملة من العوامل لتفسير ظاهرة التفوق العماني في صراعهم مع البرتغاليين ، أهمها الروح المعنوية العالية للمقاتلين العمانيين في مواجهتهم عدواً تأريخياً تلقوا على يديه أبشع وسائل التنكيل أكثر من قرن[٥٦] . رافقت تلك الروح خبرة بحرية مختزنة لشعب بحري عريق أستطاع أن يطور فنونه البحرية لتصبح موائمة لقوة الخصوم الذين أمتلكوا أقوى وأحدث السفن الحربية المسلحة . يضاف الى ذلك ما عاناه البرتغاليون من تدهور سياسي كان أحد سمات دولتهم خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر ومواجهتهم لقوى أوربية أخرى دخلوا معها في صراع مميت تزامن مع صراعهم مع العمانيين ولاسيما هولندا وأنكلترا[٥٦] .

الهوامـــش :

1 - Robert Landen, Oman since 1856, Prinston 1967 , P. 54 .

٢ - تعاقب على الحكم فيها سلسلة من الائمة العظـــام : ســـلطان بـــن ســـيف ١٦٤٩-١٦٧٩ ، بلعرب بن سلطان ١٦٧٩-١٦٩٢ ، سيف بن ســـــلطان ١٦٩٢-١٧١١ ، سلطان (الثاني) بن سيف ١٧١١-١٧١٨ .

3 - Charles Lockyor, An Account of Trade in India , London, 1711, PP. 206-7 .

4 - Alexander Hamilton, A New Account of the East Indies, ed. By : W. Foster, London , Rep. , 1930 , Vol. 1 , P. 76.

٥ - عبد الله حميد السالمي، تحفة الأعيان بسيرة اهل عمـــان ، ط٥ ، ١٩٧٤، ص١٠٠ . من الطريف الاشارة الى ان السالمي حدد طول المدفـــع بـــ (٣٠٠ شبر) أي ما يقارب سبعة أمتار !

٦ - ميناء صغير يقع على مسافة ثلاثة أميال ونصف الى الشمال الشرقي مـــن ميناء لنجة .

٧ - أنظر

Frederick, C. Danvers, The Portuguese in India , Being a History of the Rise and Decline of their Eastern Empire , Vol. 2 , London 1894, PP. 293-9 , 301-2 .

8 - R.D. Bathurst, The Ya'Rubi Dynasty of Oman (Ph.D. Thesis Oxford University 1967) , PP. 112-13 .

9 - Letter from the Viceroy to the King , 26 Dec. 1651, Quoted in : Ibid, P. 113 .

١٠ - أنظر : Ibid, PP. 114-15 ; Danvers, P. 302 .

11 - Bathurst, P. 117 .

١٢ – كانت نتائج الصراع البرتغالي – الهولندي مدمرة على البرتغاليين إذ فقدوا خلاله أهم قواعدهم : ملقا في ١٦٤١ ، كاليكوت ١٦٥٦ ، ترنكومالي ١٦٥٨ ، وتعاقب تهاوى القواعد البرتغالية على طول ساحل كورماندل وارخبيل الملايو .

أنظر :

William Milburn, Oriental Commerce, or the East India Traders Complete Guide , London , 1813 , Vol. 1 , PP. 308-9 ; Danvers, Vol. 2 , PP. 301-318 , 319-62 .

١٣ – شجع هذا الوضع أغلب الزعماء الهنود على شن الحرب ضد البرتغاليين على طول الساحل الغربي للهند وأوقعوا بهم خسائر كبيرة . أنظر : Danvers, II , PP. 303-10 .

١٤ – حول الروابط الوثيقة بين عمان وساحل شرق أفريقيا يمكن الرجوع الى : خولة الدجيلي ، العلاقات العربية الاسلامية مع الساحل الافريقي الشرقي حتى القرن التاسع الهجري ، رسالة دكتوراه – كلية الآداب – جامعة بغداد ١٩٨٠ ، د. جمال زكريا قاسم ، عمان في شرق أفريقيا ، الدولة العمانية في شرق افريقيا ، ندوة الدراسات العمانية ، المجلد الثالث ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ١٩٨٠ ، جمال زكريا قاسم الاصول التأريخية للعلاقات العربية – الافريقية ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٥ ، غانم رميض ، أثر السياسة البريطانية في الدور العربي في شرق افريقيا ١٨٠٦-١٨٦٢ – رسالة دكتوراه ، الجامعة المستنصرية – بغداد ١٩٩١ ص ١٥-٢٠ .

١٥ – للتفاصيل ، أنظر :

J. Strandes, The Portuguese in East Africa , Transl. By : J.F. Wallwork, Nairobi 1961 , PP. 203-8 .

16 - Bathurst, PP. 118-19 .

17 - Strandes, P. 227 .

18 - Bathurst, PP. 119-20 .

19 - Strandes, PP. 228-9 .

20 - Bathurst, P. 121 .

21 - W.F.W. Owen, Narrative of Voyages to Explore the Shores of Africa , Arabia and Madagascar , London , 1833, P. 414 .

22 - Bathurst, PP. 121-2 .

23 - Ibid, P. 122 .

24 - Ibid, PP. 122-3 .

تحدد بعض المصادر خطأ تاريخ الهجوم على ديو بسنة ١٦٧٠ . أنظر:

S.B. Miles, The Countries and Tribes of the Gulf , London, 1966 , PP. 214-15 ;

عائشة السيار ، دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيـــا ١٦٢٤-١٧٤١، بيروت ١٩٧٥، ص ٧٣ .

25 - Bathurst, P. 124 ;

غانم رميض ، قيام حكم سلالة اليعاربة وانهياره في عمان ١٦٢٤-١٧٤٩ رسالة ماجستير – معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٨٧، ص ٦٩ .

26 - Bathurst, P. 124 .

27 - Strandes, P. 230 .

28 - Letter From Gombroon to Surat, 26 , Nov. 1669, Quoted in : Bathurst, P. 125 .

29 - Letter From Gombroon, 8 Feb. 1671, Quoted in: Ibid, PP. 125-6.

30 - Ibid, P. 128 .

31 - Ibid, PP. 129-30 .

32 - Ibid, PP. 131 .

33 - John Fryer, A New Account of East India and Persia, Being Nine Years Travels 1672-1681 , ed. By : W. Crooke, London , 1912 , Vol. 2 , 192 ;

يورد مايلز الرواية نسها ولكنه يقدر عدد رجال قوة الانـــزال بـــ ٦٠٠ رجل.

Miles, P. 216 .

34 - Bathrust, P. 132 .

35 - Fryer, Vol. 2 , P. 338 .

36 - Bathurst, P. 133.

37 - Strandes, PP. 231-2 .

٣٨ - سرحان بن سعيد الازكوي ، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمـــة الجامع لاخبار الأمة ، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي ، دار الدراســـات الخليجية ، ص ١٠٨ ، Miles, P. 214 .

٣٩ - الازكوي ، ص١٠٨ .

٤٠ - لا يعرف تماما متى أستعاد البرتغاليون حصن ممباسا بعد الحصار العماني الناجح خلال سنوات ١٦٦٠-١٦٦٥ . يذكـــر أون ان البرتغـــاليين بعـــد أندحارهم عاونوا الى ممباسا بجيش كبير حيث جرى قتال غير متكافئ مـــع الحامية أسفر عن أحتلالهم الحصن مجددا . وما أن تم لهم ذلك حتى أخذوا ينكلون بأهالي المدينة لأنهم عاودوا العمانيين وأشتركوا في طردهم ولـــهذا أخذ أهالي ممباسا يترقبون بتلهف وصول قوة الأنقاذ العمانية .

Owen, Vol. 2 , PP. 414-15 ;

Bathurst, P. 138 .

41 - Bathurst, P. 139 .

42 - Strandes, P. 238 .

43 - Bathurst, PP. 140-1 .

44 - Danvers, Vol. 2 , P. 370 .

45 - Ibid., P. 370 , Bathurst, P. 141 .

٤٦ - الازكوي ، ص١٠٩ .

47 - Bathurst, PP. 141-2 .

٤٨ - أنظر : Ibid., PP. 142-3 ; Hamilton, Vol.1, PP. 51, 159 ; لورنس لوكهارت ، التهديد العماني ونتائجه في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر ، مجلة الخليج العربي ، العدد ١٠ ، البصرة ١٩٨٧، ص ٩١ .

49 - Lockhart, PP. 67-8 , J. Bruce, Annals of the H.E.I. Company , Vol. 3 , London , 1810 , P. 169 .

أحدثت سلسلة الانتصارات العمانية ، لاسيما الهجوم على كونك ، قلقا لدى أوساط شركة الهند الشرقية الانكليزية ، يتضح هذا من رسالة وكيل الشركة في بندر عباس برانكوين Brangwin الى رؤسائه في سورات ، إذ كتب يقول : "أنهم [العمانيون] سيثبتون كونهم كارثة على الهند كالجزائريين على أوربا" .

Quoted in : Charles R. Low , History of the Indian Navy 1613-1862 , London 1877 , Vol. 1 , P. 213 .

٥٠ - تؤكد المصادر الغربية على تباين كامل في أسلوب معاملة الطرفين لأسرى الطرف الآخر . ففي الوقت الذي يعامل البرتغاليون الأسرى العرب باشد درجات الوحشية ، يعامل العرب أسراهم بمنتهى "الأنسانية فلا يعرضونهم لأرهاق من عمل شاق وتسلم الاسير اجور المقاتل العماني نفسه"

أنظر : Hamilton, Vol. 1 , PP. 75-6 ; Lockhart , P. 69 .

٥١ - للمزيد من التفاصيل عن معارك الحصار ، انظر :

Bathurst, PP. 143-6 , Strandes, PP. 245-67 ; Owen, Vol. 2, P. 415 ;

غانم رميض ، ص ٧٤-٧٦ .

52 - Bathurst, PP. 146-7 .

٥٢ - للاطلاع على مظاهر ذلك الأنهيار يراجع :

The Cambridge History of Iran, Vol. 6 , Cambridge 1986, PP. 310-24 .

54 - Danvers, P. 371 .

55 - Bathurst, P. 147 .

٥٦ - حول سياسة التنكيل بالعمانيين أنظر : نايف الأحبابي ، الموقف العربي والاقليمي من الهيمنة البرتغالية في الخليج ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب - جامعة بغداد ١٩٨٨ ، ص ٤٢-٤٨ ، ١٠٧-١٢٣ .

٥٧ - يتجلى الضعف الذي أصاب البرتغاليين في لجوئهم الى الأنكليز طلبا للعون. وتعبر المعاهدة المعقودة بين الملك افونسو السادس وتشارلس الثاني ملك انكلترا في ٢١ حزيران ١٦٦١ التي هي ثمرة زواج الملك الانكليزي من كاترين باركنزا ابنة ملك البرتغال ، عن ذلك الضعف ، إذ تنازلت البرتغال بموجبها عن جزيرة بومباي الستراتيجية ، ونصت المادة الحادية عشر من المعاهدة : "من أجل تمكين ملك أنكلترا من الدفاع عن رعايا ملك البرتغال ومساعدتهم وحمايتهم في تلك الأنحاء ، فأن ملك البرتغال ينقل الى ملك انكلترا وورثته الى الأبد ، ميناء وجزيرة بومباي بجميع حقوقها وثرواتها ومقاطعاتها" .

R.H. Thomas, Treaties, Agreements and Enagements Between the H.E.I. Co. and the Native Princes , Bombay 1851, PP. 563-4.

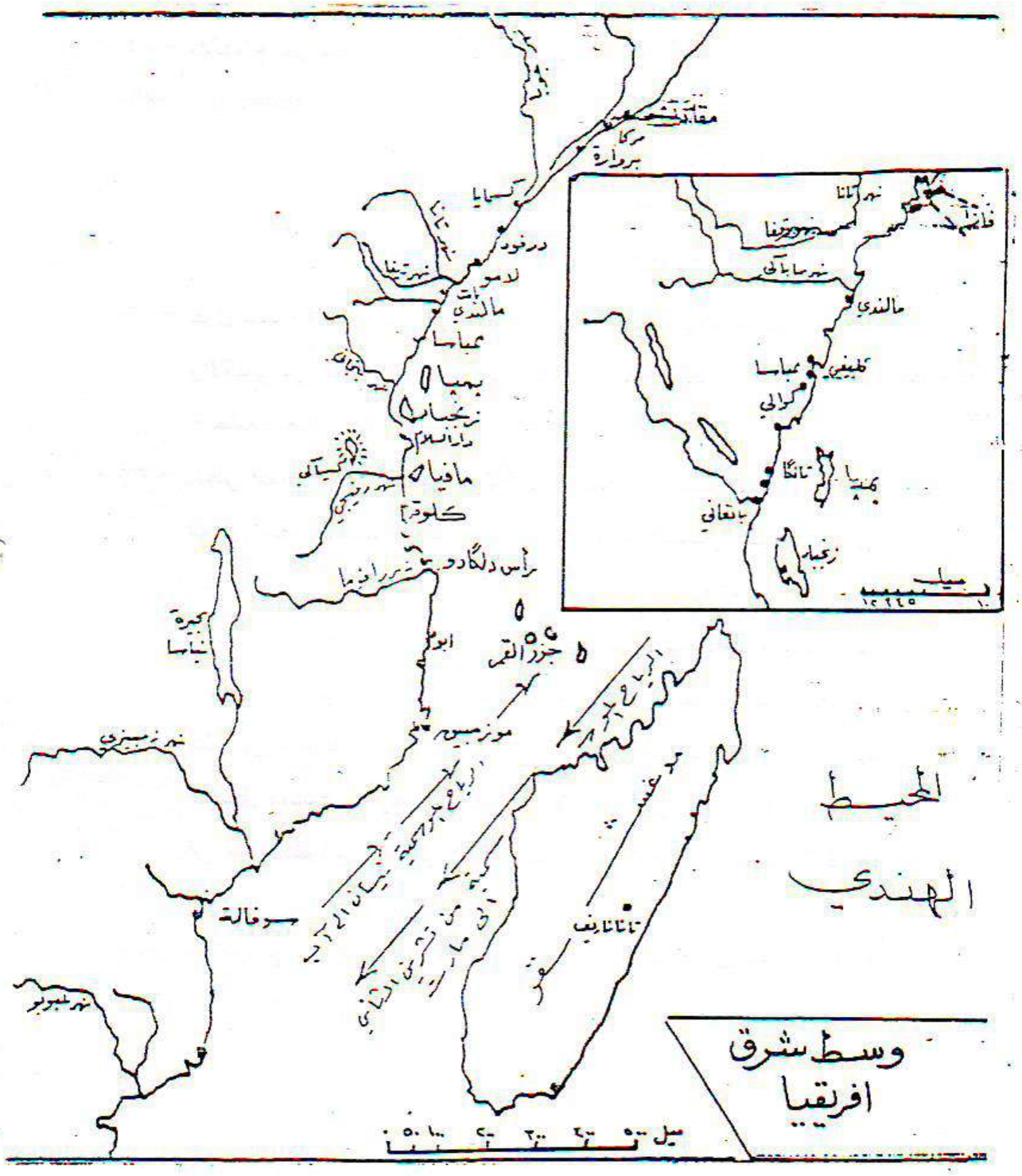
المحيط
الهندي
وسط شرق
افريقيا
ميل
مقاديشو
مركا
برواوة
كسمايو
درفود
لامو
مالندي
ممباسا
بمبا
زنجبار
مافيا
كلوة
رأس دلكادو
جزر القمر
موزمبيق
سوفالة
نهر لمبوبو
تانانا ريف
نهر تانا
نهر سابكي
كليفين
كرالي
تانغا
باتغاني
زنجبار
بمبا